

من هذا القبيل من شعر طرفة بن العبد، والحصين بن حمام في رثاء نعيم بن الحارث خليله، واستشهد بكلام ديماستنس أعظم بلغاء اليونان ويوليوس الشاعر اليوناني على أن هؤلاء الناس من عرب وغير عرب يقسمون بأشياء عادية لا لغاية تعظيمها، أو لكونها مقدسة، بل لتكون شاهدا على ما يقولون ودليلاً على ما يتكلمون.

ثم جاء الكاتب إلى أقسام القرآن فيبين أنها لا تكون للتعظيم إلا إذا كان المقسم به هو الله تعالى وشعائره، وما عدا ذلك فهو لمحض الاستدلال.

وفي فصل طويل راح يأتي بالبرهان تلو البرهان على أن بعض ما أقسم به الله ليس لتعظيمه وإنما لمحض الاستدلال به ومن جملة ما قاله:

«ما تهتدي إليه من حمل النظر على النظر، وتفسير الآيات بعضها ببعض فإنك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة على أسلوب الآية والعبرة، وكلها إلهاد - أي إقسام - لمن يتفكر فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤). ومثل هذا كثير، فيذكر الله آياته ويحتج بها، ثم ترى هذه الآيات استشهد بها القرآن على أسلوب القسم، فأقسم بالسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والفجر والضحى، والرياح والسحاب، والجبال، والبحر، والإنسان، والوالد والولد والذكر والأنثى، والشفع والوتر، فكونها آيات دالة له نظير، ولا سبيل إلى إرادة تعظيمها.

ومن الأدلة قوله: إن العاقل لا يتوهم أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس، ولا سيما الذي ليس له كبير تقديس، كالخيل العادية، والرياح الذارية.

وقد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخرة مدللة طائعة، ففي نفس القسم بها دلالة على أن المراد بها محض القسم بها.